المتاولة

او

الشيعة في جبل عامل (٢)

اطلعت في المقتطف على ما كتبه حضرة الفاضل الشيخ احمد رضا من ادباء جبل عامل بشأن طائفة الشيعة المعروفة بالمتاولة في هذا الجبل وتأملت فيما اورده من تاريخ ظهورها فيه مع سبب اشتهار الشيعة في بر الشام دون غيرهم باسم « متاولة » الى غير ذلك من التنقيبات الحرية بالاعتبار فآثرت ان اضم الى هذا البحث بعض ما خطر لي فيه اتماماً للفائدة وزفاء

---

(١) الاخباريون الذين ينكرون تعلم علم الاصول ولا يعملون الا بالاخبار ولا يقسمونها الى الاقسام الاربعة بل يأخذونها على علاتها وهم من المبتدعين

(٢) نشرت هذه المقالة وما بعدها في مجلة المقتطف فاحببنا نقلها مع تعليق ملاحظتنا عليها اتماماً للفائدة

بالبلاغ لا من قبيل الاعتراض ولا على جهة المحاجة بل من قبيل اضافة رأي الى الآراء والقاء دلو بين الدلاء فاقول

ذكر الكاتب ان لقب « متاولة » مشتق على غير القياس من « تولى » اي اتخذ وليّاً لانهم تولوا آل البيت النبوي رضوان الله عليهم اي اتخذوهم اولياء او هو مشتق من توالى اي تتابع نظراً لتواليهم خلفاً عن سلف في موالاة العترة المصطفوية . والذي اراه ان التوجيه الاول هو الاقرب وانه هو الاصل في التسمية فان « تولى » يأتي في اللغة بمعنى اتبع كما يأتي بمعنى انصرف فكأنه من الاضداد وهذا منزع معروف للعرب وقد جاء منه في الكتاب العزيز بمعنى الاعراض « وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم » وجاء بمعنى الاتباع « ومن يتولهم منكم فانه منهم » اي من يتبعهم و ينصرهم . والشيعة قد تولوا آل البيت اي اتبعوهم فقيل في اسم الفاعل « متولي » وتحرفت الكلمة بطول الزمن على السنة العامة فقيل « متوالي » وجمعوه « متاولة » وكان الاولى ان يقال فيه « متولية » . والوجه الثاني هو من توالى في حب آل البيت اي تتابع فيكون اسم فاعله « متوالي » ولا تحريف عندئذ فيه من جهة مفرده لكن يبقى التحريف في جمعه اذ لا جمع « لمتوالي » على « متاولة » بل جمعه الصحيح « متوالية » . وقد سمعت وجهاً ثالثاً من فم استاذنا الامام الشيخ محمد عبده المصري اكرم الله مثواه وهو انهم كانوا يقولون للعلوي « مت وليّاً لعلي[1] » وكان يحرض الشيعة بعضهم بعضاً على الثبات في حب آل البيت بهذا الكلام فصيغت من ذلك كلمة « متولي » ثم صارت بتوالي الايام «متوالي» وكلها وجوه غير بعيدة والغرابة ليست فيها بل في كون هذه اللفظة غير معروفة الا لشيعة بر الشام بل لشيعة جبل عامل وجبل لبنان وبعلبك ففي العراق شيعة لا يقال لهم متاولة وفي اليمن شيعة يقال لهم « الزيدية[2] » ولا يقال لهم متاولة وفي العجم شيعة اكثر من كل محل ولا يقال لهم متاولة وبين مسلمي الهند ملايين من الشيعة ولا يعرفون بلقب متاولة . واغرب من هذا ان في نفس دمشق الشام محلة يقال لها الخراب سكانها من العلويه ويقال لهم هناك «روافض» ولا يقال لهم متاولة . وبالاجمال فالشيعة في جميع بلاد الاسلام تحت القاب شيعة وعلوية وامامية وجعفرية[3] وزيدية واثنا عشرية وغير ذلك وكلمة متاولة مخصوصة بشيعة بر الشام

---

(١) لو صح هذا للزم ان تسمى جميع الشيعة متاولة مع ان هذا اللقب لا يطلق الا على شيعة جبل عامل وبعلبك كما تقدم

(٢) الزيدية غير الشيعة الامامية كما لا يخفى (٣) لا فرق بين الجعفرية والامامية

عَلَى ان المجانسة بالمعنى بين التشيع والموالاة ظاهرة بل المعنى واحد في اللفظين فالولي او المتولي هو المشايع او المتشيع . وورد في كتاب « غاية الاختصار في اخبار البيوتات العلوية المحفوظة من الغبار » للسيد الشريف تاج الدين بن محمد بن زهرة الحسيني نقيب حلب قولهُ «كل قوم امرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض فهم شيعة وشيعة الرجل اتباعه وانصاره ويقال شايعهُ كما يقال والاهُ من الولي والمشايع »

هذا ما حضرني الآن من جهة كلمة «متاولة» وانا موافق لصاحب البحث على كونها حديثة العهد جرت عَلَى الالسن منذ نحو مائتي سنة فقط لان المؤرخين لم يذكروا هذه اللفظة عند ذكر شيعة بر الشام مع كون هذه الطائفة موجودة في هذا القطر منذ اوائل الفتح الاسلامي

اما ما ذكره من جهة مبدأ التشيع في الشام وانه من سيدنا ابي ذرّ الغفاري الذي نفاه الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنهما الى الشام وكان يخرج الى الساحل وله مقام بقرية الصرفند ومقام آخر في مشارف الغور الى غير ذلك فهو قول متواتر بين الناس وربما كان اقرب الاقوال الى الصحة ولكن كنت احب ان يكون الكاتب اورد عليه النصوص التاريخية[1] من امهات الكتب او نقل من الروايات ما فيه زيادة تفصيل وشفاء للغليل فان التاريخ المعروف لدينا قصير العبارة جداً عن هذا الحادث وهذه الظلمة فيه هي التي اضلّت كثيراً من المؤرخين في حقيقة اصل الطائفة الشيعية في جبل عامل وحملت بعضهم عَلَى الظن انهم اقوام اتوا من العجم فلا انكار ان ابا ذرّ كان مواليًا لعليّ اي كان شيعياً وانه من المتخلفين عن مبايعة الصديق في يوم السقيفة وله في ذلك شركاء من الصحابة نصت عَلَى ذلك الامهات . فاما مقامه بالشام فغاية ما ذكروا فيه انه كان ينكر عَلَى معاوية جمع الاموال ويشنع عليه بهذا السبب حتى شكاه معاوية الى عثمان فنفاه الى الربذة . ذكر ابو الفداء في حوادث سنة ٣٥ وفاة ابي ذرّ الغفاري واسمه جندب بن جنادة قال «وكان بالشام ينكر عَلَى معاوية جمع المال ويتلو : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله » الآية . فكتب معاويه الى عثمان يشكوه فكتب اليه عثمان ان اقدم المدينة فقدم الى المدينة فاجتمع الناس عليه وصار يذكر ذلك ويكثر الشناعة عَلَى من كنز الذهب والفضة فنفاه عثمان الى الربذة »

اما تسمية هذا الجبل بجبل عامل او جبل عاملة فلم اجد الكاتب تعرّض لها[2] مع ان فيها ما يثبت كون سكان هذا الجبل عربًا لا عجماً وذلك لان مؤرخي العرب اتفقوا عَلَى كون

---

(١) لو كان لدى الكاتب نصوص تاريخية مشبعة لاوردها ويكفي التواتر والشياع

(٢) قال الكاتب بانها نسبة الى عاملة بن سبا وبما قاله كفاية

حمير وكهلان واشعر وعمرو وعاملة هم من ولد قحطان وان اباهم هو يشجب بن يعرب بن قحطان وان من حمير التبابعة وبني شعبان وقضاعة ومن كهلان الازدوطيء ومدحج وهمدان وكندة ومراد وانمار ومن كل من هؤلاء بطون وافخاذ كثيرة واما اشعر فهي القبيلة التي ينسب اليها ابو موسى الاشعري واما عمرو فمنهم لخم وجذام واما عاملة فانهم خرجوا الى الشام ونزلوا بالقرب من دمشق بجبل عرف بجبل عاملة ومنهم عدي بن رقاع الشاعر٠ وعلى هذا يكون اصل سكان هذا الجبل من عرب اليمن وربما يكون نزل فيه ايضاً قوم من السكاسك وهما قبيلتان على ما حققه ابن الجواني النسابة الاولى من كندة والثانية من حمير وهم بنو زيد بن وائلة بن حمير ويلقب بزيد السكاسك وكلاهما باليمن والذي يحملني على هذا الظن وجود ارض يقال لها السكسكية[1] الى الجنوب من الصرفند على سيف البحر

وقد ورد ذكر جبل عاملة في مواضع كثيرة ٠ قال ياقوت في معجم البلدان عند ذكر هونين : بلد في جبال عاملة ٠ وقال عند ذكر تبنين : بلدة في جبال بني عامل المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور ٠ وورد في تاريخ ابن الاثير عند ذكر حصر الافرنج تبنين : ان الملك العزيز خرج من مصر لنجدة المسلمين في الشام ورحل هو والعساكر الى جبل الخيل ويعرف بجبل عاملة

ومن الغريب انه لم يرد في الكتب القديمة ذكر هذا الجبل باسم بلاد بشارة كما هو معروف به اليوم والشيخ احمد رضا يقول ان نسبة هذه البلاد هي الى احد حكامها في العصور الوسطى قيل انه من الامراء بني معن وقيل هو بشارة بن مقبل القحطاني وان كل ذلك لم يقم عليه برهان ٠ وقوله هذا هو الصحيح اما الامراء بنو معن فلم نجد في تاريخهم من اسمه بشارة واما بشارة بن مقبل القحطاني فحبذا لو ورد شيء من تاريخه لنعلم اين كان مقره ومن كان صاحب هذا الاسم اذ لو عرفنا شيئاً من امره لكان يمكن ترجيح هذه الرواية على غيرها ٠ وما دام صاحب هذا الاسم مجهولاً فالاولى ان تكون هذه البلاد منسوبة الى حسام الدين بشارة من امراء الدولة الايوبيه ٠ قال ابن شداد في سيرة صلاح الدين يوسف انه اتى عكا فاقام بها معظم سنة ٨٥ ورتب بها بهاء الدين قراقوش واليا وامره بعمارة السور ومعه حسام الدين بشارة ٠ وقال ايضاً انه في سادس عشر جمادى سنة ثمان وثمانين وصل كتاب من حسام الدين بشارة يذكر انه تخلف في صور مئة راكب وانضم اليهم من عكا خمسون وخرجوا لشن الغارات في البلاد الاسلامية فوقع عليهم العسكر المرصد لحفظ البلاد من ذلك الطرف

---

(١) السكسكية قرية

وجرى بينهم قتال شديد . وقد ورد ذكر حسام الدين بشارة مرة ثالثة في تاريخ ابن شداد عند حلف اليمين للافضل بن صلاح الدين بعد وفاة والده وظهر من كلامه انهُ كان من اكابر امراء تلك الدولة . فلا يمنع ان يكون تولى هذه البلاد ونسبت اليه وهو اقرب وجه في هذه النسبة حتى يقوم ما يدل عَلَى رجحان خلافه

لما كون التشيع في جبل عامل هو اقدم منه في العجم بل كل قطر حاشا الحجاز فمن الحقائق التي لا خلاف فيها بل التشيع في العجم احدث منه في سائر بلاد الاسلام[1] . فجودت باشا في تاريخه يقول ان الشاه عباس هو الذي بثّ مذهب التشيع في ايران واقام الدولة الصفوية عَلَى اساسه والمحبي يقول ان الشاه عباس بن السلطان محمد خدا بنده بن طهما سب ابن الشاه اسماعيل ابن سلطان حيدر ينتهي نسبه الى الامام علي وان اول من بالغ في التشيع واظهره هو السلطان حيدر وكان ذلك سنة ست وتسع مئة وهذا مخالف نوعاً لما قال جودت باشا وعَلَى كلا القولين فالتشيع في العجم غير قديم كما انه في العرب وفي بر الشام لم يكن ظاهراً بل كانت الشيعة تستمسك بحبال التقية خوفاً عَلَى انفسهم ولذلك تجد المؤرخين يتجانفون عن نسبة علماء الشيعة الى التشيع الا اضطراراً . فقد ترجم المحبي محمداً بن علي بن محمود الشامي العاملي المعروف بالحشري ونقل عنه ما قاله ابن معصوم في السلافة من الثناء والاطراء وذكر انه خرج من الشام الى العجم ولم يذكره بتشيع ولا رفض . وكذلك ترجم حسناً العاملي الكوفيني مادح الامير فخر الدين بن معن ولم يقل انه شيعي وترجم حسناً بن زين الدين الشهيد العاملي الشهير بالشامي ولم ينسبه الى التشيع وذكر حفيده زين الدين بن محمد بن حسن كذلك . انما في ترجمة محمد بن علي بن احمد المعروف بالحريري و بالحرفوشي العاملي الاديب الشاعر ذكر اخراجه من دمشق وسعي يوسف ابن ابي الفتح عند الحكام بقتله بنسبة الرفض اليه وانه سار الى بلاد العجم وان سلطانها الشاه عباس صيره رئيس العلماء في بلاده . كذلك عندما ترجم محمداً الحر العاملي الشامي نقل عن ابن معصوم صاحب السلافة انه قدم مكة في سنة سبع او ثمان وثمانين والف وفي الثانية منها قتلت الاتراك جماعة من العجم لما اتهموهم به من تلويث البيت الشريف وان المترجم خاف عَلَى نفسه فالتجأ الى السيد موسى بن سليمان

---

(١) التشيع في بلاد العجم غير حديث بل شاع في اول القرن الثالث اذ تشيع القميون عَلَى يد الامام الرضا عليه السلام وفي رواة الحديث عدد غفير منهم وقصة دعبل مع اهالي قم حين وهبه الرضا ثوباً وابتاعوه منه بخمسة وعشرين الف دينار مشهورة

نجا . وذكر المحبي ان ممن قتلوا بتلك التهمة السيد محمد مؤمن وكان رجلا متعبداً الا انه معروف بالتشيع

ولما وصل الى ترجمة فريد عصره بهاء الدين العاملي صاحب الكشكول ذكر انه ولد ببعلبك عند غروب شمس الاربعاء لثلاث عشرة بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وخمسين وتسعمئة وانتقل به ابوه الى بلاد العجم وما زال يتدرج في سلم الفضل الى ان ولي مشيخة الاسلام في تلك الديار وقال « وغالت تلك الدولة في قيمته واستمطرت غيث الفضل من ديمته فوضعته على مفرقها تاجاً واطلعته في مشرقها سراجاً وهاجاً وتبسمت به دولة سلطانها شاه عباس واستنارت بشموس رأيه عند اعتكار حنادس الباس فكان لا يفارقه حضراً ولا سفراً الخ » . ثم نقل عبارة الطالوي في حقه التي اطراه فيها بما لم يسمح به لاحد وقال ان شاه عباس طلبه لرئاسة علماء بلاده لكنه لم يكن على مذهب الشاه في الزندقة لانتشار صيته في سداد دينه الا انه غالى في حب آل البيت

وذكر المحبي انه لما ورد الشام نزل بمحلة الخراب وهي الآن محلة الشيعة ونقل في حقه عبارة للشيخ ابي الوفاء العرضي وهي انه لما قدم حلب في زمان السلطان مراد بن سليم حضر دروس الوالد اي الشيخ عمر وهو لا يظهر انه طالب علم حتى فرغ من الدرس فسأله عن ادلة تفضيل الصديق على المرتضى فذكر حديث ما طلعت الشمس ولا غربت على احد بين النبيين افضل من ابي بكر فرد عليه واخذ يذكر اشياء كثيرة تقضي تفضيل المرتضى فشتمه الوالد وقال له « رافضي شيعي » وسبه فسكت . ثم ان صاحب الترجمة امر بعض تجار العجم ان يصنع وليمة يجمع فيها بين الوالد وبينه فصنعها ودعاهما فاخبره ان هذا هو المنلا بهاء الدين عالم بلاد العجم وقال للوالد شتمتمونا فقال له ما علمت انك المنلا بهاء الدين ثم قال انا سني احب الصحابة ولكن كيف افعل سلطاننا شيعي ويقتل العالم السني . قال المحبي ولما سمع بقدومه اهل جبل بني عامل تواردوا عليه افواجاً افواجاً فخاف ان يظهر امره فخرج من حلب اه

ومن هنا يظهر ان الشيعة كانوا لا يزالون معتصمين بالتقية متكتمين في امرهم مئين من السنين لانه لا جدال في كونهم موجودين في الشام منذ اوائل الفتح الاسلامي ومع هذا فالمؤرخون لا يذكرون هذا الامر الا عرضاً وربما لا يذكروه اصلاً ومما يدل على القدم والتكتم كون الاسماعيلية والدروز قد خرجوا من الشيعة ويقال انهم خرجوا من الشيعة السبعية اي القائلين بالائمة السبعة وقع ذلك في اواخر القرن الرابع للهجرة واوائل القرن الخامس في ايام الدولة الفاطمية الغالية في التشيع فالشيعة كانوا في هذه الجبال قبل هذه

الطوائف التي خرجت منهم ومنازل الفريقين لم تزل متناوحة مما يستدل به على وحدة الجرثومة فضلاً عما بين كثير من عشائر الفريقين من القرابات والكلالات والانساب المتحدة في الاصل متواتراً ذلك خلفاً عن سلف يؤيد كون هذه الطوائف كلها راجعة في اصلها الى العرب . والله تعالى من وراء العلم

شكيب ارسلان

العرفان، ٣ تشرين الثاني ١٩١٠، من صفحة ٤٤٤ إلى صفحة ٤٥٠